(٨)
رُسُلُ قريش ..

ارتجت مكة لما بلغها أن رسول الله ﷺ قد أقبل يريد أن يدخلها معتمراً في ذلك الجمع من أصحابه . فاجتمع المشركون وتعاهدوا ألا يدخل عليهم النبي ﷺ مكة من هذا العام . قالوا: أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً ، فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنْوةً ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ ! والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف !

وخرجت قريش يقودها خالد بن الوليد في مائتي فارس ، واستنفروا من أطاعهم من القبائل ، ومنهم ثقيف وزعيمها آنئذ عروة بن مسعود الثقفي ؛ وكان النبي ﷺ قد بعث بُسر بن سفيان ليعرف له خبر قريش ، فعاد إليه بما عرفه من عزمهم على منعه من دخولها ذلك العام ، واستعدادهم للحرب في سبيل ذلك .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية ، جاءَه بُدَيْلُ ابن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه ، لم يكونوا كلهم أسلموا

ولكنهم كانوا ممن يقدرون رسول الله ﷺ قدره وينصحون له مخلصين ، وكانوا لا يخفون عن رسول الله ﷺ شيئاً . فأتوا رسول الله وأخبروه خبر قريش ، وأنهم « أقسموا بالله لا يخلون بينه وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم ». فقال لهم رسول الله ﷺ : « إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه . إنَّ قريشاً قد أضرَّت بهم الحرب ونَهكَتْهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ، ويخلون بيني وبين الناس... وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو يقاتلوا وقد جَمَّوا (أي استراحوا واستعادوا قوتهم) وإن هم أبوا فوالله لأجهدن على أمري هذا ... ولينفذن الله ، تعالى ، أمره »[1] !

فلما عاد بُدَيْلُ وركبه إلى قريش قال أناس منهم (أي من قريش): « إنهم يريدون أن يستخبروكم (أي يطلبوا خبركم) فلا تسألوهم عن حرف واحد (لأن قريش لو سألت بديل ابن ورقاء وصحبه فأجابوا كان غير لائق بقريش ألا تجيب على أسئلتهم !).

---

(١) سبق تخريجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في المسند الحديث رقم ١٩١١٧ والبخاري برقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

قال لهم بُدَيْلُ : « إنا جئنا من عند محمد ، أتحبون أن نخبركم عنه ؟ »

فقال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص: « ما لنا حاجة أن تخبرونا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل ! » ولكن قوماً من قريش أحبوا معرفة خبر النبي ﷺ فقالوا لبديل ومن معه « أخبرونا عنه »، فقال لهم بُدَيْلُ :« إنكم تعجلون على محمد ، إنه لم يأت لقتال ، إنما جاء معتمراً » وقص عليهم مقالة رسولَ الله له . ولكن قريشًا ركبت رأسها ، واستبد بزعمائها استكبارهم ، فقالوا لن يدخلها محمد علينا من عامه هذا أبداً !

وكان مع قريش عروة بن مسعود الثقفي في نفر من قومه ، وقريش أخواله فإن أمه كانت سُبَيْعة بنت عبد شمس القرشية ، فعرض على قريش أن يذهب بنفسه إلى النبي ﷺ ليعرف خبره ويكون عيناً لقريش عليه . فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ، فجاءه وكرر عليه موقف قريش ، وقال له « إنك من قتالهم بين أحد أمرين : بين أن تجتاح قومك ، ولم يُسْمَعْ برجل اجتاح قومه وأهله من قبل؛ أو بين أن يخذلك من ترى معك » واستخف بمن مع النبي ﷺ من الصحابة ،

فرد عليه أبو بكر رداً قاسياً ، وأخذ عروة يمد يده إلى لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه (وهي من عادات العرب إذا أراد المتحدث أن يظهر بره ووده لمن يكلمه أو إشفاقه عليه) فجعل المغيرة بن شعبة ـ وكان واقفاً على رأس رسول الله ﷺ، وبيده السيف ـ كلَّما مدَّ عروة يدَهُ يَقْرعها بأسفل قراب السيف ويقول له : « اكفف يدك عن مسِّ لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك! » وذلك كراهة أن يمس لحية رسول الله مشرك . والمغيرة بن شعبة أبوه ابن أخي عروة بن مسعود[1] ، وكان قد لبس المغفر حين رأى عمه قادماً لئلا يراه عمه ! (المغفر غطاءٌ للرأس يخفي الوجه يلبسه المحارب تحت القلنسوة) فغضب عروة من كثرة ما صنع المغيرة به هذا ، وقال للنبي ﷺ : « ليت شعري ! ! من هذا الذي آذاني من بين أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشرَّ منزلة ». وقال للمغيرة : « ما أفظك وأغلظك!! » فقال له رسول الله ﷺ ـ وهو يبتسم ـ « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » فكلمه عروة بكلام يذكِّره فيه بفضل له عليه وبقتيل من ثقيف قتله المغيرة قبل الإسلام وتحمل ديته عروة بن مسعود .

---

(١) أي إن عروة بن مسعود هو عم شعبة أبو المغيرة بن شعبة .

وردَّ رسول الله على عروة بمثل ما رد به على بُدَيْلُ بن ورقاء . وعاد عروة إلى قريش فأخبرهم الخبر ، ووصف لهم تعظيم أصحاب النبي ﷺ إياه ، وأنهم لن يسلموه أبداً ، وأن الرجال والنساء منهم في ذلك سواءً . وقال عروة لقريش: «والله لقد رأيت معه نساءً ما كن ليُسْلِمْنَهُ على حال»!

ونصح عروة قريشاً ألا تحول بين المسلمين وبين البيت، فأبوا ! فقال لهم عروة بن مسعود : «ما أراكم إلا تصيبكم قارعة»[1]. وانصرف هو ومن معه من ثقيف إلى الطائف .

وأرسلت قريش بعده إلى النبي ﷺ الحُلَيْس بن علقمة الكناني أحد رؤوس قبائل مكة ، فأرسل النبي أمامه الهدي - وكان من قوم يعظمون الهدي ويتألهون[2] - فلما رآه قال : «سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت... هلكت قريش ورب الكعبة»! ثم عاد إلى قريش فأمرهم بمثل ما أمر به عروة بن مسعود ، فلما أبوا انصرف بمن معه من قبيلته وحلفائها غاضباً مما تصنع قريش بقوم أرادوا اعتمار البيت وساقوا الهدْيَ ![3]

---

(١) الصالحي، السابق، ص ٧٢-٧٥.

(٢) يتألهون أي يتعبدون ويتنسكون.

(٣) السابق، ص ٧٥-٧٦.

وهكذا عادت رسل قريش إليها ينذرونها سوء العاقبة إن هي صدَّت محمداً ﷺ عن البيت الحرام . وأخذ قريشاً كبرها وحمية الجاهلية : أن يقول الناسُ دخل محمد ﷺ عليهم مكة وهم كارهون .

وكانت نتيجة هذه الأنفة الجاهلية أن انصرف «الخلفاء» الذين استعانت بهم قريش عنها . فعاد عروة بن مسعود ومن معه من ثقيف إلى الطائف ، وانصرف الحليس بن علقمة الكناني ومن معه عن مكة إلى دورهم وبيوتهم غضابًا من مَنْعِ قومٍ أتوا يريدون اعتمار البيت من دخول الحرم . وهكذا انقلب على قريش أقرب من استعانت بهم إليها . وجعل الله تدمير مكرها في تدبيرها إياه . وكذلك عواقب الظالمين لا تكون إلا خسرانًا وخيبةً !

وقد أبى الله ـ منذ البدء ـ إلا أن ينصر نبيه ، فقد انصاعت قريش في خاتمة المطاف ، بعد خسارتها هؤلاء الحلفاء ، إلى اقتراح النبي ﷺ : أن تكون بينها وبينه مدة (هدنة) يأمن الفريقان فيها. فكانت هذه المدة هي الفتح المبين للنبي ﷺ ، وبدء التمكين لدينه في أرض العرب كلها .

* * *